الإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بَاعَلَوِيّ

«مَوْلَى الدَّوِيلَة»

فرع الدراسات وخدمة التراث
الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ — ٢٠٠٢ م

سلسلة أعلام حضرموت ٦

الإمام محمد بن علي باعلوي

«مولى الدويلة»

(ت ٦٦٥هـ)

بقلم خادم السلف

أبي بكر العدني ابن علي المشهور

فرع الدراسات وخدمة التراث

أربطة التربية الإسلامية - عدن

بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنّا أَعْطَينَاكَ الكَوْثَر . فصَلِّ لِرَبِّكَ وانحَرْ.

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر ﴾

الإهداء

إلى شُيُوخي الأَفَاضِل..

بَقيَّةِ السَّلَف..

وأمثلةِ الطريقِ في الخَلَف..

وإلى أحفادِ الإِمَام محمد مَولى الدَّوِيلة في مشـ ـارق الأرض ومغاربها..

وإلى الراغبينَ في التّعَرُّفِ على نماذجِ ((السَّفينةِ التي مَن رَكِبها نَجَا ومَن تَخلّف عنها هَلَك)) ..

المُؤَلّف

شاهد الحال

سلامٌ على الشيخِ المُقَدَّمِ في المَلا
أبي عَلَوِيٍّ المنتقى في الأفاضلِ
محمدٍ الحاوي المحاسنَ في العلا
وسابِق سُبّاقِ الرجالِ الأفاضلِ
وفرعٌ نَمَتْهُ دَوْحَةٌ نَبَوِيَّةٌ
له حُسْنُ سَمْتٍ عالٍ وفَضائلِ
فريدٌ أثيلٌ أَوْحَدُ العصرِ ماجِدٌ
صَفِيٌّ مُصَفًّى مِن جميعِ الرذائلِ
مُحِبٌّ ومحبوبٌ حُبِي بالوصالِ والـ .
عطايا زعيمُ القومِ حُلْوُ الشمائلِ

« الغرر » ص٣٩٥

سلسلة نسب الإمام محمد مولى الدويلة

هو الإمام محمد مولى الدويلة بن علي بن علوي ابن محمد الفقيه المقدم بن علي بن محمد صاحب مرباط ابن علي خالع قسم بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيدالله ابن أحمد المهاجر ابن عيسى ابن محمد النقيب ابن علي العريضي ابن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين السبط ابن علي وفاطمة رضي اللّه عنهما بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم .

المدخل

الحمد للّه الذي ألبس أولياءه تيجان المهابة والمفاخر ، وجعلهم أَدِلَّاءَ في العالم المحسوس على مكنون العلم المضنون في الباطن والظاهر ، والصلاة والسلام على سيد الأوائل والأواخر ، سيدنا محمد بن عبد اللّه إمام أهل اللّه ، الذي انبثق منه نور الولاية فسرى في القلوب والأرواح والسرائر ، وعلى آله السادة الأكابر ، وعلى أصحابه أئمة الهدى والبصائر ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم تبلى السرائر .

وبعدُ فأَزُفُّ إلى القارئ الكريم نموذجاً مباركاً من رجال القرن

السابع الهجري ، نموذجاً جمع اللّه فيه من خصال التقوى والشرف ما يستحقُّ أن يُنظر في أمره ، ويُستفاد من مواهب اللّه له في سره وفي جهره ، عاش حقبةً من الزمن كان له فيها دور الإنارة للأرواح المؤمنة ، والقلوب الموقنة ، تَرَقَّى في مراتب الإسلام والإيمان والإحسان بجدارة حتى تحدث بالنعمة قائلاً :

الحِبُّ حِبِّي والحبيبُ حبيبي ... والسَّبْقُ سَبْقِي قبلَ كُلِّ مجيبِ

نوديتُ فأجبتُ المناديَ مُسرعاً ... وغطستُ في بحرِ الهوى وغُذِي بي

وهنيئاً لأهل القلوب المطمئنة بمولاها مِن مثلِ هذا الإمام الذي ورد في مناقبه أنه مكث عشرين عاماً يصلي الصبح بوضوء العشاء ، وكان إذا فسَّر القرآن في مجلس الدرس يحيِّر الألبابَ من سَعة علمه، وقوة حجته ، ورجحان دليله ؛ مع أن طلبه للعلم كان محدوداً مقارنةً بأشباهه وأمثاله من أهل عصره، إلى غير ذلك من المناقب الدالة على عظم حاله وسعة باله وجلال إنابته واستقامته ، نفعنا اللّه ببركاته وعلومه .. آمين .

بطاقة تعريف

هو الشريف العفيف العارف باللّه ، البالغ في ترويض نفسه بالمجاهدات الطوعية ورياضاته الروحية درجة الكمال النسبي ، ومقام الفتح الوهبي بعد الكسبي ، إمام عصره وعين دهره ، واحد الزمان المشهود له بالتفرد ، وحامل لواء الصدق في العمل والتعبد ، شهد له المُصَلُّون بالأمانة في القول والفعل والقصد ، ورضيه العلماء إماماً في الفتوحات الربانية والمواهب النورانية ، ولد بتريم — وهي حرم الإقليم — وحفظ بها نصف القرآن العظيم ، مات أبوه وهو صغيرٌ فكفله عمه الشيخ عبد اللّه باعلوي ، ورباه وشمله بنظره وحسن رعايته ، وسلك به على منهاج طريقته حتى ثبت على الطريق السوي ، ونال بحسن العناية كل سند قوي ، فأخذ عن جملة من أسرته أهل العلم والفضل .

في كلِّ حين ترى الأنوارَ ساطعةً　　تضيءُ للكون من سرِّ الهدى
من فجرِ ما ولدوا والنور يَغْمُرُهم　　طبعاً وما فارقوا القرآن والكتبا
هم سادة قد غدوا بالسر مذ برزوا　　وزادهم ربهم من فضله نسبا

وكانت تريم آنذاك معهداً للتربية والآداب ، ومرتعاً للتطبيق العلمي لثوابت الكتاب والسنة ، قومٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن

ذكر اللّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، وحَرِيٌّ بمثل هذا المجتمع المتضافر على الخير أن ينشئ الفتيان على سنن الاتباع .

ويَنْشَأُ ناشِئُ الفتيانِ منّا على ما كان عَوَّدَهُ أَبُوهُ

أخذ الإمام محمد بن علي طريقة أهله وسلفه ، إضافة إلى مبادئ العلوم الفقهية والحديثية والصوفية والقرآنية التي يزخر بها مجتمعه الواسع عن جملة من شيوخ عصره ، وأئمة دهره ، وورد ذلك القول في التراجم .

قال صاحب « الغرر » ص١٨٧ نقلاً عن « الجزء اللطيف في التحكيم الشريف » للسيد الإمام أبي بكر بن عبد اللّه العيدروس «العدني» في معرض وصفه لأخذ السيد عبد الرحمن بن محمد بن علي مولى الدويلة ما مثاله : أخذ الشيخ عبد الرحمن بن محمد الإذن والعهد وعقد الصحبة والآداب عن أبيه الشيخ الصالح الولي العارف ذي العلوم والمعارف الحبر القدوة الفقيه جمال الدين محمد بن علي مولى الدويلة ، وتأدب الشيخ محمد بآداب والده الشيخ علي بن

علوي ، وتخرج بعمه الشيخ عبد اللّه باعلوي[١]، وتربى بسـ ـره في العلم اللدني الباطن والظاهر ، وسلك على منهاج طريقته ، وحـ ـذا حذوه واقتدى به[٢] .

رحلته إلى الحرمين الشريفين

رحل الإمام محمد بن علي في شبابه ، ووصل إلى أرض الحرمين ، وأدى ما عليه من النسكين ، وزار جده سيد الكونين ، وأخذ بهما عن جماعة من العارفين والفقهاء الكاملين ، واجتمـ ـع في طريـ ـق رجوعه بالشيخ العارف باللّه علي بن عبد اللّه الطواشي فـ ـاعترف كل لصاحبه بمقامه الشريف ، وكان الإمام محمد بن علي كلما عَلِمَ شيئاً من علم الشريعة عَمِلَ به ولا ينـ ـزع رداء العمل عن منكبه[٣].

بعض أحواله ومجاهداته

قال في « المشرع الروي » (٢: ٢٠٠) : كـ ـان لـ ـه رياضـ ـاتٌ

(١) وقد ترجمنا له ضمن هذه السلسلة .

(٢) « الغرر » ١٨٧ .

(٣) « المشرع الروي » ص٢٠١ بتصرف واختصار .

وأحوالٌ ومقاماتٌ، وأكثر أعماله قلبيات ، وكان يخفي أعماله عن أصحابه وحتى عن أهله ، وكان الغالب عليه الإقامة بالبادية ، وترد عليه بها أحوالٌ بركتُها عليه بادية ، وكان يشتغل بنشر الدعوة إلى اللّه ، وإذا ورد عليه حالٌ من الأحوال النورانية ربما تكلَّم كلاماً عظيماً في علوم الشريعة والحقيقة ، والمقصود بالحال : وُرُودُ بَسْطٍ من كثرةِ أذكاره وتلاوته وطاعاته ، فترتاح نفسه ، ويصفو سره ، فيتكلم بما فتح اللّه عليه ، وقد يرد عليه حالُ قبضٍ أو انزعاجٍ نفسيٍّ أو خوفٍ من مقام الحق سبحانه فيظهر ذلك جلياً على تصرفه، وقد ورد في سيرته أنه قد يُغشى عليه في حضرة عمه الشيخ عبد اللّه باعلوي إذا ورد عليه وارد الحال ، وكان يقول لبعض مَن يعترض عليه ويتحير في حاله : نزل علينا شيءٌ لو نزل على الجبال لدُكَّتْ.

قال صاحب « المشرع » : قام بعضهم يصلي والسيد محمد بن علي لا زال نائماً في المسجد ، فلما سجد الرجل قال في نفسه : أنا ساجدٌ وقائم ، وهذا مضطجعٌ نائم ، ويقولون: إنه قدوة للعالم، فما رفع الرجل رأسه من السجود بل لزقت جبهته بالأرض، فتاب ورجع عن اعتراضه ، فأمر السيد محمد بن علي بعض من عنده أن يرفع رأس الرجل من سجدته ، فلما فرغ من صلاته اعتذر،

وعاهده على أن لا يعود إلى الاعتراض[1].

قلتُ : وهذه كرامةٌ تدل على صلاح وصدق صاحب الترجمة ، والحال أن الصلاةَ نافلةٌ ، ولو كانت فرضاً لما تأخر عنها صاحب الترجمة ، ويدل على ذلك كون الرجل يصلي وحده .

وكان الشيخ الكبير العلم الشهير العارف باللّه تعالى فضل بن عبداللّه يعظمه ويثني عليه ، ويمتثل بين يديه .

وكان لصاحب الترجمة حالات عجيبة ، وأمور غريبة ؛ فأحيانا يلبس ثياب الملوك ، وأحيانا يتزيا بزي الصعلوك ، ومرة يلبس الثياب النفيسة الحسنة ، وأخرى يلبس الشِّمال الخشنة ، وربما مال إلى صحبة الأعيان والأكابر ، ثم ينفر عنهم ويصحب الفقراء الأصاغر ، وفي بعض الأحيان يجتهد في الأعمال البدنية من القيام والصيام ، فقد روي أنه مكث نحو عشرين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء[2].

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٠ بتصرف.

(٢) قلتُ – واللّه أعلم – : يُعَدُّ هذا التقلُّب في رغبات الإمام ومظاهر حياته وعلاقاته دلالةً على موت النفس وقهرها ، وإلا فالمرء يَصْعُبُ عليه تغييرُ عاداته التي أَلِفَها ، فالتربية النفسية التي تلقاها الإمام على أيدي أشياخه وأسلافه هيأته مبكراً لهذا

المقام السامي ، وكانت المجاهدات القلبية والقالبية أساساً في تربية السلف ، وعنصراً هاماً في تركيب وترتيب الأبناء والبنات ، معتمدين على الاختيارات الذاتية المنبثقة عن فهم الإسلام وقواعده.

ومثل هذا معلوم في تاريخ التربية الإسلامية منذ عهد الرسالة مع شيء من التفاوت من زمان إلى زمان، ففي العصور التي كان فيها الرجال يؤثرون الجهاد في سبيل اللّه ، ويجندون طاقاتهم وذواتهم لهذا الهدف السامي كانت المجاهدات القلبية والقالبية تتخذ شكل العسكرية الإسلامية ، فلم يتأخر أحد عن الآداب والسلوك ومفهوم التربية الأخلاقية وهو يحمل السيف في سبيل اللّه ، ولما تغير حال المسلمين بما دخل على بلادهم وعقولهم من أسباب النقض والقبض جنح العقلاء من آل البيت النبوي ، ومن اهتدى بهديهم إلى إعطاء الجهاد مدلولاً ذاتياً يسهم في بناء الإنسان، ويقي المرءَ التباسَ الوقوع في معركة الدنيا الغرارة ، وحبائل النفس والهوى والشيطان، مع التطلع اليقيني لمستقبل الجهاد المشروع، عندما ﴿يأتي اللّه بالفتح أو أمر من عنده﴾.

هذا هو موقف سلفنا الصالح من هذه المسألة ، خلافاً لما يرميهم به أضدادهم من التهم والإلصاقات الغريبة ، حيث إن منهج آل البيت بحضرموت منذ عهد الفقيه المقدم ومن جاء من بعده قد أرسى قاعدةً تربويةً لا يُلزم بها غيرُ أهلها ، ولا يميلون معها إلى وضع الانتقادات لغيرهم في عدم الأخذ بها ، وهي التخلي عن خوض معركة الرياسات وكراسي الحكم والسياسات ، وترك حمل السلاح تحت أي صورة كانت بعد أن عطل الحكام قضية الجهاد في سبيل اللّه ، وصار السلاح وسيلةً للصراع على الحكم والمال والجاه ، فآل البيت لا يموتون في سبيل هذه المطامح الدنيئة ، ومع هذا وذاك فقد شمل الضعف اليوم مدرسة حضرموت كما

توطنه ببادية يبحر

قال صاحب ((المشرع)) ص٢٠١ : ثم اختـار المحـل المسـمى بـ ((يُبْحُر)) ، وهو قريبٌ من قبر نبي اللّه هود عليه أفضل الصـلاة والسلام عنده عينٍ جارية، وبنى دارا واستوطن ، وبنى حوله كـثيرٌ من جماعته بيوتاً حتى صارت قريةً عامرة ، وبعد مدةٍ مـن الـزمن بنيتْ قريباً من قريته قريةٌ أخرى ، فقيل للأولى ((يُبْحُر الدَّوِيلة)) ، ومعنى ((الدويلة)) في كلام حضرموت ((العتيقة))(١) ، وأطلق عليـه

شمل غيرها ، ونَقَضَ الكثيرُ من المنتسبين إليها ثوابتَ السلف ، وخاضوا معركـة الجاه والمال والحكم على ذات الوتيرة التي خاضها أضدادهم وأندادهم .

ومدرسة السلف لا تعترض على أحد بعينه ؛ ولكنها لا ترى في معركة الحياة المعاصرة بكافة نماذجها صورة البديل السليم ، بل لا زال الإسلامُ الحقُّ غريباً كما بدأ غريباً ، منعدم التأثير في كثيرٍ من المظاهر الفكرية والعلمية والعملية والسياسية والاقتصادية والاعتقادية ، وحَرِيٌّ بالمنتقد على قرار السلف الصالح أن يبدأ بنقـد البدائل التي يريدها أن تَصنعَ الإسلامَ في الواقع المغلوب ، وعندها يلزمنا جميعا أن نبارك العود إلى مدلولات الجهاد المشروع ونتخلى –نحن المتأخرون خصوصا الذين لم يبق لنا من منهج السلف غير الاعتداد به ، والتغني عليه ، والافتخار برجالـه– نتخلى عن مواقفنا السلبية لنخوض مع غيرنا من أهل ((لا إله إلا اللّه)) معركـة البناء الإسلامي المتكامل ، وإن غداً لناظره قريبٌ.

(١) ((المشرع الروي)) ص٢٠١.

بعد ذلك «مَوْلى الدَّوِيلَة» .

وكان كثيرٌ من السلف – رحمهم اللّه – يميلون إلى حياة البادية ، ويخرجون عن المدن وزحام الناس لِيَصْفُو لهم حال العبادة والرضا والأنس باللّه ، ولنشر الدعوة بين البوادي ، وهم في غالب الأحوال أهل قلوبٍ سليمةٍ وأذهانٍ صافيةٍ يستجيبون للداعي ، ويأنسون بأهل اللّه ، ويعتقدونهم، وتؤثر فيهم كلمات الداعي ، ويحرصون على العمل والاقتداء إذا وجدوا مَن يحسن البلاغ.

والإمام محمد بن علي مولى الدويلة وجد في بادية يبحر وما حولها قلوباً سليمةً ، فخيم بتلك البادية وانتفع به خلقٌ كثير.

بعض كلامه وأشعاره

مما يدل على مقام الرجل وحاله ما يؤثر عنه من كلامٍ نثريٍّ أو نظمٍ شعريٍّ ، وقد ورد في كتب التراجم من أقواله الحكيمة الدالة على عظم حاله وعلو مرتبته ، فمن ذلك قوله : نذكر اللّه تعالى باللسان وبالقلب ، ثم تفنى الحروف ، ثم يفنى اللسان ، فيبقى في القلب شمعةٌ من نورٍ متصلةٌ باللّه عز وجل .

وكان يقول : أعرف من نفسي ثلاثَ خصال ، الأولى: أني لا

أكره الموت ، فإن من كره الموت كره لقاء اللّه . الثانية : أني لا أخاف الفقر ، لأني أعرف أن ما عند اللّه أقربُ مما في يدي ، الثالثة : لا أكره أن أضيف وإن لم يكن عندي شيء[1] .

قال الشيخ عبد القادر العيدروس –معلقاً على كلام المترجَم– : فانظر كيف جمع التصوفَ كلَّه في هذه الكلمات مع كونه أُمِّيّاً ، فإن الشيخ ما نُقل عنه أنه اشتغل بتحصيل العلم ، ولا قرأ شيئاً من الكتب . انتهى[2] .

قلتُ : ومثل هذا كثير في حياة السلف ، فمنهم من لم يشتغل بالعلوم الشرعية تحصيلاً وتحقيقاً وروايةً ودرايةً ؛ ولكنه على قَدَمِ الاتّباع وسَنَنِ الاقتداء ، وخاصة أن مثل هؤلاء كانت بداياتُهم مشحونةً بنصيبٍ من الطلب للعلم الواجب ، ثم انصرفوا عن الظهور وتقرير العلوم لكثرة المشتغلين بذلك ، ولربما رأى بعضهم عدم الأهلية في نفسه فاشتغل بالطاعة وتحقيق المعاملة فيما بينه وبين مولاه .

ومما يدلنا على اطّلاع الإمام محمد بن علي على كثيرٍ من العلم

---

(١) أي: أطعم الضيوف.

(٢) ((المشرع الروي)) ص٢٠١ .

الظاهر والباطن –وإن كان يوصف بعدم الاشتغال بالعلم[1]– مما أورده صاحب «المشرع» ص٢٠١ : حُكي أنه أراد أن يؤمَّ الناس في مسجد بني علوي المشهور فمنعوه ، وقالوا له : أنت بدويٌّ لا تصلح للإمامة ، فلما صلوا جلس يتكلم على سورةٍ من القرآن بكلامٍ عظيم ، فعلموا أن هذا من العلم الوهبي. اهـ .

وأما مقالته الشعرية فقليلة ، ومنها :

الحبُّ حبِّي والحبيبُ حبيبي والسَّبْقُ سَبْقِي قبلَ كُلِّ مجيبِ
نوديتُ فأجبتُ المناديَ مُسرعاً وغطستُ في بحرِ الهوى وغُذِي بي
لي تسعةٌ وثلاثةٌ معْ تسعةٍ والعقدُ لي وحدي علا بنصيبي
ما تعلموا أني المقدَّم في الملا ليلتْ سُرِي باليثربيِّ سُرِي بي

وبرغم أن البيت الأخير يشكل مغزاه على كثير من المتأخرين إلا

(١) يُعتقد أن مقصود المترجِم للإمام محمد بن علي بعدم الاشتغال بالعلم : أنه لم يحترف الطلب ولم يشتغل بمطالعة الكتب وتعليم الناس كما هو حال أقرانه وأشباهه ، وأما ثوابت العلم الواجب فحضرموت كان فيها العامل والأجير والعبد يحسن أساسيات المعرفة ، فضلا مثل هذا الإمام الذي ولد في بيت العلم ومنبعه .

أن الفهم للقصد ومعرفة أسلوب العصر وقاموس التصوف الفخري يسهم في جلاء الغموض في المعنى ، فالحقيقة التي يدركها الجميع أن ذرية المرء في ظهره ، والمعلوم نصاً أن ذرية آل البيت النبوي هم في صلبه صلى اللّه عليه وآله وسلم ، ولو كانوا في ظاهر الحال من صلب علي بن أبي طالب ، فيشير الإمام في أبياته الفخرية أنه كان بمعية جده ليلة الإسراء في عالم المصاحبة لأنه في ظهره ، وهذا المعنى كثيراً ما يتعرض له الشعراء الصوفيون ، ويجب أن نفهمه على مقتضى الحال الملائم لفهم الناس ليزول الإشكال[١].

ومن أشعاره الذوقية :

ولما حَضَرْنا للسرورِ بمجلسٍ ... أضاءتْ لنا مِن عالَمِ الغيبِ أنوارُ
وطافتْ علينا للعوارفِ خَمْرَةٌ ... يطوفُ بها في حَضْرَةِ القُدْسِ خَمّارُ
فلما شَرِبناها بأفواهِ كَشْفِنا ... أضاءتْ لنا منها شُموسٌ وأقمارُ
تُخاطبُ أربابَ القلوبِ بلُطْفِها ... وتبدو لنا وقتَ المسرَّة أسرارُ
رفعنا حجابَ الأُنْسِ بالأُنْسِ عَنْوَةً ... وجاءتْ إلينا بالبشائر أخبارُ

---

(١) ناقشنا هذا الإشكال بإسهاب في كتاب ((شروط الاتصاف لمن يقرأ كتب الأسلاف)) ، مطبوع .

وغبنا بها عَنّا ونلنا مُرادَنا ... ولم يَبْقَ منّا بعدَ ذلك آثارُ

وخاطَبَنا في سُكْرِنا عند صَحْوِنا ... كريمٌ قديمٌ فائضُ الجودِ جَبّارُ

وكاشَفَنا حتى رأيناهُ جَهْرَةً ... بأبصارِ فَهْمٍ لا تُواريه أستارُ

قلتُ –واللّه أعلم– : هذه الأبيات لا تدل إلا على رجلٍ سَمَى في الذوق والعلم والعمل والحال ، وهي من صنف الفخريّات الصوفية .

وللصوفية مِزاجٌ فقري ومزاجٌ فخري(١) ، وهو ما يعبّر عنه بالحال، وإمامنا مَولى الدويلة يظهر من أشعاره غَلَبَةُ المزاج الفخري،

---

(١) المزاج الفقري هو حال الاعتراف وشهود التقصير في التشمير ، ويعبر عنه صاحبه بالعبارات الدالة على الخوف والقلق والاعتراف للّه تعالى ، وإظهار الفقر والعوز والحاجة ، مثل قول الإمام الحداد :

أنا عبدٌ صار فَخْري ... ضِمْنَ فَقْرِي واضْطِرَاري

أما المزاج الفخري فهو غلبة حال الأنس وظهور حال التحدث بالنعم كما هو في الأبيات المنسوبة للإمام مولى الدويلة ، أو ما يُذكر من أبياتٍ للشيخ أبي بكر بن سالم أو لغيره من السلف .

وهذه الأبيات والقصائد تفهم بما يلائم مقتضى الحال وتفسر إشكالاتها وما يغمض منها بدراسة قاموس العصر الصوفي وما يتحدث به الأشباه والأمثال وماذا تعنيه عباراتهم الفخرية وما القصد منها .

وهو بارزٌ في شيوخِ تلك الأعصر والأزمنة .

وإذا تأمَّلنا ألفاظَ القصيدة من خلال وَحْدَتِها الموضوعية متسلسلةً من بدايتِها إلى نهايتِها سنجدها تدور في معنى الإحسان « أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، ومن لم يدرك معنى الإحسان منا لا يليق به الاعتراض على من تحقق بمبناه ومعناه ، فالاعتراض لا يدل على رغبة في فهم الحقيقة والوصول إليها ، وإنما يدل على اصطدام الأفق الضيق بما هو أشمل منه وأوسع ، فلا يَتَأَتَّى للعاقل أن يجرد الشمول والمعاني الواسعة ليُرْضِيَ عنها أربابَ المفاهيم القاصرة ، والواجب في مثل هذا الحال إظهار المعاني بما يناسب العقل القاصر لينزاح عنه إشكاله ، هذا إن كان صاحب الإشكال من الراغبين حقا في فهم المشكل ، وأما إذا كان من عشاق عقدة الإشكال الذين يحملون المعاني على مقتضى فهومهم الجائرة ، وبها يدندنون في المجالس والمحاضرات كقادح اعتقادي ؛ فلنا معهم مقال آخر ونقاش لا تسعه التراجم المحدودة ذات الهدف التعليمي[١] ، واللّه يتولانا وإياهم ، ويرزقنا السير إلى ما يرضيه ، ويوصلنا إلى مراضيه . آمين .

---

(١) راجع هذا الموضوع بتوسع في « شروط الاتصاف لمن يقرأ كتب الأسلاف » .

كرامات الإمام محمد بن علي مولى الدويلة

سبق وأن تناولنا مسألة الكرامات في سلسلة الأعلام السابقة ، ولكنا نرى أن إعادة التناول لها مع مناسبتها في كل ترجمة أمرٌ لا مَناص منه ، فكافة الشيوخ الذين تُطرق تراجمهم لابد أن نجد لهم مساحة واسعة من الترجمة تظهر لنا قيمة المترجم له من خلال كراماته ، وكان هذا مطلباً أساسياً في تلك العصور يتناسب مع ثقافاتهم واستعداداتهم ، أما في عصرنا اليوم فالذين يحبون الكرامات وأهلها لا يتجاوزون أصابع اليد في المجتمع الواحد ، وإن كانوا أكثر من ذلك فما هم إلا من عوام الناس الذين تتغلب عواطفهم على عقولهم ، أما جيل الحداثة الذي آمن بعلم النظريات ، وتدرج في مدارس الشهادات ، وصار طموحه الأكبر تَرَقِّيه في العلوم النظرية والمراتب الدنيوية فلا يرى في هذه المسائل شيئاً يَعْنِيه ، وإن عناه من ذلك شيءٌ فقد يكون مجرَّدَ دراسةٍ لظاهرة من الظواهر الغريبة عند الصوفية ، ولربما رآه البعض من الأمراض والأعراض التي أصابت المسلمين في عصور الانحطاط ، وهذا كله كما نراه ويراه الكثير من الناس يعود إلى عوامل كثيرة أهمها تأثر المدرسة الإسلامية بعمومها بالعلمنة الغربية والشرقية بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إذ نعلم أن

كثيراً من التحليلات التي طعنت في الجوانب الروحية لدى التصوف والصوفية إنما جاءت بفعل الدراسات الأجنبية الاستشراقية ، وهذه الدراسات منذ عصر الثورة الصناعية وهي تنسج الأقاويل المشككة في الدين كله وفي شخص رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن ، فضلا عن تشكيكها في منهج فرعي كالتصوف .

ونحا هذا المنحى فيما بعد عددٌ من مؤسسات التعليم والثقافة في العالم العربي والإسلامي بعد مرحلة التفكك وتقسيم تركة الرجل المريض ((كما كان يطلق على دولة الخلافة الإسلامية في تركيا)) ، وتناولت هذه المؤسسات قضية التصوف والصوفية بمنهجٍ استشراقيٍّ بحتٍ ، اللّهم إلا ما كان من بعض المخلصين المنصفين الذين أَبَوا صريحَ الإفراط المذموم لدى الغلاة ، وأما البقية –وهم الكثرة– فقد صار الأمر أشبه ما يكون بالعقدة النفسية دون تثبتٍ ولا تمحُّصٍ ، تبعاً للإعلاميات المطروحة في المرحلة .

وبعد هذه المقدمة التي أردنا بها إيضاح مسألة الكرامات وملابسات إيرادها في التراجم نقول : إن كثيراً من شيوخ التصوف الذين جرت لهم هذه الكرامات كانوا يكرهون الكلام فيها ، أو نشرها ، أو نسبتها إليهم ، وآراؤهم في ذلك مبسوطة في مؤلفاتهم ،

واعتبرها بعضهم عيبا يقدح في حال الولي عند أشباهه وأمثاله ، وفي مدرسة حضرموت بالذات انبرى عدد من الشيوخ إلى منع ذكـ ـر كراماتهم ، وإيقاف أتباعهم وتلامذتهم عن إظهارها .

وبهذا نرى أن مخاطبة جيلنا المعاصر يجب أن تنحى منحى الرفـ ـق بهم وعدم إثارتهم ، ويلزم حملة الأقلام تقديم نماذج الأولياء بأسلوب يميز الفضائل والمحاسن العملية والعلمية التي تملأ قلوب الجيل باحترام الرجال والاقتداء بمواقفهم الاجتماعية ذات الأثر البالغ في تحولات المراحل وإصلاح فاسدها ، وتبقى الكرامات وأخبار الأحوال ضمن التراجم التقليدية ، وإذا اضطر الكاتب لسبب مـ ـا ، أو المتحـ ـدث لإبراز نموذج من هذه الكرامات يجب أن يشفعها بالتعليل المنطقـ ـي ليقرب فهمها للقارئ والمستمع[1] .

وقد ذكر بعض الكرامات صاحب « المشرع الـ ـروي » ص٢٠١ فقال :

منها أن سلطان اليمن أرسل عسكراً إلى أحمد بن يماني سـ ـلطان حضرموت ليأخذ منه بندر الشحر ، وكـ ـان صـ ـاحب الترجمـ ـة

---

(١) راجع هذا الموضوع بتوسع في « شروط الاتصاف لمن يقرأ كتب الأسلاف » .

وأحمد بن يماني بالبندر ، فنزل العسكر بقرب البندر ، فطلب أحمد بن يماني منهم أن يصبروا إلى أن يصلي الجمعة ويخرج من البلدة ويتركها لهم، فأبوا وقالوا : لابد أن تخرج في هذه الساعة ، فقال صاحب الترجمة : اُخرجْ عليهم فإن اللّه ينصرك ، فخرج لمحاربتهم، فلما التقى الجمعان أخذ السيد كَفّا من الحصباء وتفل فيه ورمى به في وجوه القوم فولوا مدبرين .

ومنها : أنه أمسك بعتبة داره وقال لمن فيها : أَخْرِجُوا جميعَ ما في الدار ، ثم تباعد عن الدار فانهدمتْ جميعها .

هذان نموذجان مما أوردته كتب التراجم ، وليس هدفنا ترويج الكرامات ، وإلا لذكرناها جملةً وتفصيلاً ، ولكن –كما أشرنا من قبل– هدفنا تلبية حاجة العصر في معرفة نماذج الرجال ، فلهذا نعرض الشخصية بأعمالها ومجاهداتها البدنية ، وأما غير ذلك فهي ثمرات قد تحصل للبعض ، وقد لا تحصل ، وليست شرطا من شروط الولاية ، وإنما شرط الولاية الاستقامة ، وإذا استقام العبد كما أُمر فليس على اللّه أن يهيئ له أسباب الكرامة ﴿فاستَقِمْ كما أُمِرْتَ﴾ ، ﴿إنَّ الَّذينَ قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا تَتَنَزَّلُ عليهمُ الملائكةُ أَلاّ تخَافُوا ولا تحَزَنُوا وأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ الَّتي كُنْتُمْ تُوعَدُون﴾.

ومما يُستحسن ذكره كشاهدٍ يقينيٍّ على صدق أحوال هؤلاء الرجال من أمثال إمامنا الشيخ محمد بن علي مولى الدويلة شهادةُ معاصريه ، فهذا الشيخ عبدالرحمن الخطيب يعترف بفضل ومقام الإمام محمد بن علي فيقول فيه :

يَحِقُّ لكم يا ابنَ الكرامِ التَّفاخُرُ ... كما أَوَّلُ الفضلِ لكم والأواخرُ
فكم شاعَ في الآفاق فَيْضُ فَضْلِكُمْ ... وأسرارُكم ما للورى الكلِّ غامرُ
بكم تُدفع الأسوا عن الخَلْقِ والبَلا ... وفي جاهِكُمْ تُنْشا السحابُ المواطرُ(١)

وقال عنه مؤلف « الغرر » ص٣٩٥ : كان من أجلاء المشايخ العارفين ، وأكابر الأولياء الكاملين ، ورؤساء الحضرة المقربين ، ذو القدم الراسخ في التمكين ، والباع الطويل في أحكام الدين .

وقال صاحب « المشرع » ص١٠٢ : هو الإمام الذي باسمه تنشرح الصدور ، العارف الذي بوجوده روض الفضائل معمور ، خصه اللّه به بأوفر حظ من العلا والإحسان ، باتفاق أهل العلم والعرفان .

---

(١) « المشرع الروي » ص١٠٢ .

وفاته رحمه اللّه

قال صاحب « المشرع » ص١٠٢ : ولم يزل طائعاً لمولاه ، إلى أن وافته الوفاة ، فانتقل إلى رحمة اللّه تعالى يوم الاثنين لعشرٍ خَلَوْنَ من شهر شعبان سنة خمس وستين وست مئة ٦٦٥ ، ودفن في مقبرة زنبل، وخلف من بعده من الأبناء الشيخ علوي ، والشيخ علي ، والشيخ عبد اللّه ، والشيخ عبد الرحمن ، وبنت اسمها علوية ، رحمهم اللّه رحمة الأبرار ، وجمعنا بهم بعد طول الأعمار في دار القرار ، في جنات تجري من تحتها الأنهار . آمين .

وكان الفراغ من جمع هذه الترجمة مساء الاثنين
الثاني والعشرين من جمادى الثاني
عام تسعة عشر وأربع مئة
وألف من الهجرة
النبوية بجدة
المحروسة

الفهرس

المطلع القرآني	٥
الإهداء	٧
شاهد الحال	٩
سلسلة النسب	١١
المدخل	١١
بطاقة تعريف	١٣
رحلته إلى الحرمين	١٥
بعض أحواله ومجاهداته	١٥
تعليق وملاحظة ((حاشية))	١٧
توطنه ببادية يبحر	١٩
بعض كلامه وأشعاره	٢٠
تعليق على المزاج الفقري والفخري ((حاشية))	٢٤
كرامات الإمام محمد بن علي	٢٦
تحليل ظاهرة النقد للكرامة	٢٧
نماذج من كراماته	٢٨
مقالات معاصريه ومادحيه	٣٠
وفاته رحمه اللّه	٣١